

## المقالة الثمانية عشر<sup>١</sup>

### في استعداد العابد للأجل وملازمته القراءة والسكوت

إن سيرة الصديقين لبهية ؛ وكيف صارت بهية جميلة إلا بالصبر ، فحب الصبر أيها العابد بما أنه أم الشجاعة ، أما المترنم داود فطوب قائلاً : " أصطبر للرب وأحفظ طريقه " . وأما بولس فيعلم كيف تقنتى هذه الفضيلة بقوله : " إن الحزن يصنع صبراً " .

فإذا تصرفت في هذه الفضيلة تجد الرجاء ينبوع الصالحات ، والرجاء لن يخزى ، فأخضع الآن للرب ، وتضرع إليه ، فتصادف من هذه ما يتلوه فيعطيك كافة مسائلات قلبك .  
فماذا يكون أسعد غبطة من هذا ، أن تقنتى سمعاً من الملك هكذا صارخاً بوداعة ، من ذا لا يؤثر أن تكون مسامع القاضي مفتوحة وسامعة له ، أنت أيها الأخ فاعل الفضيلة أستأجرك المسيح لكرمه فما دام لك وقت أعمل الصلاح .

أسمع بولس الرسول قائلاً : " مهما زرعه الإنسان إياه يحصد " . أزرع في الروح فتحصد حياة أبدية ، لأنه زرع من يزرع في جسده من جسده يحصد بلاء .

أسمع الواعظ النصوص قائلاً : " ازرعوا في ذاتكم العدل فتقطفون ثمر الحياة " .  
لا تسأم من العمل إذ تشاهد قدامك الرجاء ، لأنه حيث الجهادات فهناك رايات الغلبة ، وأين ما تكون الحروب فهناك الكرامات ، وحيث ما يكون الصراع فهناك الأكاليل ، فإذ تشاهد هذه الفوائد فروض نفسك بالصبر .

أصرخ مع ذاتك كل حين مع القديسين قائلاً : تشجع وليتأيد قلبك وأصطبر للرب . هبى للانصراف أعمالك وأستعد في الحقل ، فالحقل هو هذا العالم ، خذ مثلاً نافعاً العهد العتيق والعهد الجديد .

سيج حول قطعانك بالأشواك ، متكاتفاً بالصوم والصلاة بالتعليم إن كان لك مثل هذا السياج ، فلا يدخل الوحش أعني المحال .

فلح نفسك مثل كرم جيد ، وكما أن محافظي الكروم يصفقون بأيديهم ويزعقون بصوتهم ويُعرفون بذلك الذين يغتالونهم ، كذلك أهتف أنت بالصلاة ، وكبر بالترنيم ، فتطرد الثعلب الوحش الخبيث الذي هو المحال ، الذي عنه يقول الكتاب : " اقتنصوا بذاتكم ثعالباً صغاراً .. الخ " .

صد العدو كل حين ، إن رشق قلبك بشهوة قبيحة ، إن رمى بمقلع نفسك ، وزج فيها أفكاراً دنسة ، فأنصب نحوه ترس الأمانة ، وأليس خوذة الرجاء ، وأستل سيف الروح الذي هو قول الله ، وإذا تسلحت مقابل العدو فأصبر ولا تسأم في الحرب .

فُق في كل شيء ، وقل : أنا لا تخفى عني معقولاته ، أفرح في كل حين كما كتب قائلاً : فليعرف كافة الناس دعوتكم ، وليبرق تقوى الله في قلبك . لا تكن جندياً طارحاً سلاحه ، ولا فاعلاً جباناً وعاجزاً . لا تهرب من الأكاليل ، فالعمر قصير والدينونة طويلة ، تبصر في هذه أيها العابد .  
أصرخ بقلبك وقل مع القديسين : " تشجع وليتأيد قلبك وأصبر للرب " .

<sup>١</sup> كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع  
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس  
طبع سنة ١٨٩٢

شابه داود برميح حجر واحد مع المحارب ، فالملائكة وقوف يبصرون سيرتك . لأننا قد صرنا مشهداً للعالم والملائكة والناس ، فإن رأوك تقوّم الفضيلة ظافراً يُسرون ، وإن رأوك مغلوباً ينصرفون مقطبين ، لأنهم لا يحتملون أن يشاهدوا الشياطين يقهقون عليك .

أخرط عوض السيف مخافة الله ، لأن خشية الله هي كسيف ذي حدين يقطع كل شهوة خبيثة . فأتخذ في عقلك كل وقت خشية الله ، متذكراً في عقلك اليوم الأخير المخوف ، حين تضطرم السماوات وتنحل ، وتحترق الأرض وكافة الأعمال التي فيها ، حين تنتشر النجوم كالورق، والشمس والقمر يظلمان، ولا يمنحان ضوءهما .

حين يظهر ابن الله وينحدر من السماوات إلى الأرض ، وقوات السماوات تضطرب حين يتسارع إحضار الملائكة ، وتتواتر أصوات الأصوار ، وقدامة نار محرقة جارئة عدواً تنظف المسكونة ، وحوله زوبعة شديدة حين تصير زلازل مرهبة ، وبروق لم تصر أبداً ولن تصير إلا في ذلك اليوم ، حتى قوات السماوات يشملهم الرعب والردة .

فكيف مزعم أن نكون يا إخوتي ؟ أية خشية أو أي رعب يشملنا ؟ تأمل يا أخي بني إسرائيل في البرية ، أنهم ما استطاعوا أن يحتملوا الضباب والظلام وخوار الأصوار ، وصوت المتكلم في وسط النار ، بل أبو أن يزيدهم كلمة .

لأنهم بالحقيقة ما احتملوا ما كان بازائهم ، ومع هذا أنه لم ينحدر بغضب ، ولا خاطبهم بسخط بل بتسليية محققاً عندهم أن الذي معهم هو الإله .

أسمع إذا يا أخي إن لم يستطيعوا احتمال وروده الذي كان بتسليية حين لم تلتهب السماوات وتنحل ؛ وما الأرض وما فيها احترقت ؛ ولا ضربت الأصوار شديداً كما يزعم هو أن يتوق ذلك الصور فينبه الراقدين منذ الدهر ، ولا ظهرت نار تغسل كافة المسكونة ، ولا صار شيء من الخوف العتيد أن يصير ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يحتملوا .

فماذا نصنع إذا ، إذا أنحدر بغضب وغيظ لا يقاسان ، وجلس على عرش مجده ، وأستدعى الأرض من مشارق الشمس إلى مغاربها ، وكافة الأقطار إلى محاكمة شعبه ، ليجازي كل أحد نظير أعماله .

الويل لنا ، كيف سبيلنا أن نكون حين نمثل عراة بادية أعناقنا ؛ مزمعين أن ندخل إلى الموقف المرهوب ، أفّ أين حينئذ شجاعة البشرية ؟ أين الجمال المزور الغير نافع ؟ أين التذاذ الناس بالآلام؟ أين حينئذ الدالة الموقحة الفاقدة الحياء ؟ أين حينئذ زينة الثياب ؟ أين وقتنذ لذة الخطيئة النجسة ؟ أين حينئذ المحتسبون أن الزنا بالذكر لذة ؟ أين حينئذ الذين كانوا يشربون الخمر على الطبول والأغاني الموسيقية ، ولا يعاينون أعمال الرب ؟ أين حينئذ العائشون بالنفاق والتواني ؟ أين حينئذ التنعم والبطر ؟ كل تلك عبرت وزالت وانحلت بمنزلة الرياح .

أين محبة الفضة وحب الاقتناء ؟ أين الكبرياء النافرة الإنسانية الراضة الكل ، المحتسبة ذاتها وحدها أنها شيء ؟ أين وقتنذ الشرف الفارغ الباطل والمجد الإنساني ؟ أين التمرد ؟ أين الملك ؟ أين الرئيس ؟ أين المدبر ؟ أين السلطان ؟ أين المتبدخون بكثرة الغنى ؟ والمتهاونون بالله ؟ هناك إذا أبصروا يتعجبون هكذا ، ويفلقون ويتزلزلون ، ويشملهم الرعب والمخاض كالتي تلد ، ويسحقون بريح عاصف .

أين حينئذ حكمة الحكماء ؟ أين مكرهم الباطل ؟ اضطربوا وناموا كالسكارى وابتلعت كافة حكمتهم ، أين حينئذ الحكيم ؟ أين الكاتب ؟ أين الملتمس هذا الدهر الباطل ؟ يا أخي ردد الفكر كيف سبيلنا أن نكون إذا طولنا أن نؤدي جواباً عن الأعمال التي عملناها ؛ إن كانت صغاراً أم كباراً ، لأنه على كلمة بطالة سنعطي القاضي العادل جواباً . كيف يجب أن نكون لنجد في تلك الساعة نعمة أمامه ؟ وأي فرح يستقبلنا إذا عزلنا عن يمين الملك .

كيف نزمع أن نكون إذا سلم علينا الصديقون وصافحونا ؟ هناك يقبلك إبراهيم واسحق ويعقوب ، وموسى وداود وباقي الأنبياء ، والرسول والشهداء وجماعة القديسين الذين أرضوا الله في حياة أجسادهم ، وجماعة الذين سمعت هنا سيرتهم وتعجبت منها وكنت تريد أن تعينهم ، هم يجيئون إليك هناك فيقبلونك ويسلمون عليك مبتهجين بخلاصك .

كيف تكون حينئذ ؟ وكيف هو ذاك الفرح الذي لا ينعته وصف ، إذا قال الملك للواقفين عن يمينه ببشاشة : " تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم " .

فحينئذ يا أخي تأخذ ملك حسن البهاء ؛ وتاج الجمال من يد الرب ، وتملك مع المسيح ، وترث الخيرات التي أعدها الله للذين يحبونه ، وتكون بلا هم ؛ ولا يذهلك حزن .

تفكر يا أخي ما هو التملك في السماوات ، والملك مع المسيح الذي هو معاينة وجهه الأقدس كل حين ، وأنه هو يكون لك نجماً ، لأنه في ذلك الحين تعطيك الشمس لا أنواراً للنهار كما قال إشعياء ، ولا القمر يضئ لك بالليل ، لكن الرب يكون لك نوراً أبدياً ، والإله مجدك .

أنظر يا أخي أي شرف ومجد قد أعد للذين يتقونه وللحافظين وصاياه ؛ وأفكر في هلاك الخطة إذا دخلوا إلى المجلس الرهيب ، أي خزي يشملهم أمام القاضي العادل حين لا يكون لهم جواب اعتذار .

أي خجل يكتنفهم إذا افرزوا إلى يسار الملك ، أي ظلمة تسقط عليهم إذا كلمهم بسخطه ، وألقهم بغضبه قائلاً : " انصرفوا عني أيها الملاعين إلى النار الأبدية المعدة للمحال ورسله " .

بأي ندب يولولون منتحبين نائحين ؛ مساقين ليعذبوا إلى الدهور التي لا آخر لها ، كيف مكان البكاء وصرير الأسنان الذي يفرق منه الشيطان نفسه ؟ كيف جهنم النار ؟ كيف الدود الذي لا يرقد ونفثات السم ؟

ما أصعب تلك الظلمة البرانية ، كيف الملائكة الموكلون بعذاب الغير رحومين يعيرون ويقرعون بجفاوة ، يزعم المعذبون بدوام وليس من يخلصهم ، والرب لا يستجيب لهم .

وحينئذ يعرفون أن كل أمور العالم باطلة ، والأشياء التي ظنوها هنا مستلذة وجدوها أمر من المر والصدى .

أين حينئذ لذة الخطيئة المسماة لذة كاذبة ؛ لأن ليست لذة إلا مخافة الرب ومحبته ، وبالحقيقة هذه اللذة تملأ النفس وتشبعها شحم وسمن .

حينئذ يعرفون ذاتهم ، والأفعال التي فعلوها ، ويعترفون أن حكومة الله مقسطة قائلين : أننا سمعنا بهذا ، ولم نشاء أن نرجع عن أعمالنا الخبيثة . فلا ينتفعون من هذه إذا قالوها .

ويلي ويلي أنا المقتنص بخطايا لا تقاس ، لأنني أخطأت أكثر من عدد رمل البحر ، وقد انحنيت تحتها كما من حمل حديد ، وليس لي دالة أتفرس وأبصر علو السماء .

إلى من ألتجئ إلا إليك أيها المحب للإنسان ، إلا إليك أيها المحتمل السوء ، ألهم ارحمني كرحمتك العظمى ، وكثرة رأفاتك أمح أثمي ، أغسلني كثيراً من ذنوبي ، وطهرني من خطيئتي .

فأنني عارف أثمي ، وخطيئتي أمامي كل حين ، إليك وحدك أخطأت ، وقدامك صنعت الإثم ، فإذا صنعتته ألتجئ إليك بما أنك عديم الحقد ، إياك خالفت ، وإليك لجأت من أجل كثرة خيريتك وتعطفك .

وأتوسل هاتفاً أعرض بوجهك عن خطاياي ، وأمح كافة أثمي من أجل اسمك ، لأن ليس لي شيئاً أقرب إليك ، لا عملاً صالحاً ، ولا قلباً نقياً ، لكنني أتق برأفاتك ، وأطرح ذاتي أمامك ، لكي ما تجدد في قلباً نقياً ، وتوطدني بروح رئاسي حتى لا أنكر درس بسهولة في الخطية بل أعبدك منذ الآن بغير وعدل كافة أيامي ، لأنه إياك تسبح كافة قوات السماوات ، ولك المجد والعز إلى الدهور .

فأطلب إليكم إذاً يا إخوتي ، بما أن هذه الأشياء تنتظر ، فلنسارع لتكون عنده بسلامة غير مدنسين ولا عيب فينا .

إذا وافتك شهوة خبيثة أو فكر ردىء ، فأستل هذا السيف الذي هو التفكير في مخافة الله ، فيقطع كل قوة العدو .

عوض البوق لك الكتب الإلهية ، لأنه كما أن البوق إذا ضُرب يجمع الجند ، هكذا الكتب الإلهية إذا هتفت إلينا تجمع أفكارنا إلى مخافة الله ، لأن أفكارنا مثل الجند الذين يحاربون أعداء الملك .  
وأيضاً كما أن البوق إذا ضُرب في وقت القتال يُنهض نشاط المجاهدين الشجعان على الذين يقاتلونهم ، هكذا الكتب الإلهية تستنهض نشاطك إلى الخير ، وتشجعك على الآلام .  
فلذلك يا أخي كلف ذاتك بكل طاقتك أن تقرأها بمداومة ، لتقرع أفكارك التي شتتها العدو برداوة صناعته وسوء حيلة ، لأنه ينشئ نتائج خبيثة ، وربما يجلب أحراناً أو رفاهية وسعة كثيرة ، لأنه يصنع هذه بمكره وخبثه حتى يغرب الإنسان من الله .

لأنه إذا صارع إنساناً بالأفكار ، ولا يستطيع أن يقهره ويحطمه ، فحينئذٍ يجلب غموراً لكي ما يسود ذهنه ويظلمه ، فيجد فسحة أن تزرع المقاصد التي يؤثرها ، ويبيدي أن يخطر للإنسان فيقول بأقسام : أنني منذ صرت أعمل الخير رأيت أياماً رديئة ، فأعمل إذاً المساوئ لكي ما تجئ الخيرات .  
فحينئذٍ إن لم يكن الإنسان مستيقظاً يبتلعه كالهواية حياً .

فإن لم يمكنه بهذه أن يقتسره ، يجلب له حينئذٍ السعة ، ويعليه ويطغيه بالسعة التي هي أصعب وأشر كافة الآلام ، لأنها تجعل الإنسان متكبراً لا يقي الله ، تجذب العقل وتسحبه إلى قعر اللذات .  
وتصيره أن يجعل في السماء فم التجديف ، لأنه قد كتب " جعلوا أفواههم في السماء " .

هذه تجعل الإنسان لا يعرف الله ، ولا يعرف ضعف طبيعته ، ولا يوم الوفاة ، هذا طريق كافة الشرور ، من يحب أن يمشي في هذا الطريق يصل إلى أبواب الموت ، هذه هي الطريق التي قال عنها الرب أنها عريضة واسعة مؤدية إلى الهلاك .

فها قد سمعت يا أخي أن العدو يجلب وقتاً سعة ووقتاً غموراً وضيقة ، فالشىء الذي يختبر به نية الإنسان ويراهما جانحة إليه يحاربه بها .

فلذلك تيقظ يا أخي بتحرز وحرص دائماً أن تلتصق قراءة الكتب الإلهية ، ولا تفصل ذاتك منها ، لتتعلم كيف يجب أن تهرب من فخاخ العدو ، وتستدرك الحياة الأبدية .

لأن قراءة الكتب الإلهية تسلي القلب الحقيقي ، فلذلك لا تتوانى في نفسك بل ثابر على القراءة والصلوات ، وأستغل بها ليستضيء ذهنك وتصير تماماً كاملاً لا ناقصاً .

آخرون يتفخرون بمخاطبة الرؤساء المعظمين والملوك ، فأفتخر أنت أمام الملائكة بأنك تخاطب الله بالروح القدس بالكتب الإلهية ، لأن الروح القدس هو المتكلم بها .

فأحرص إذاً أن تفاوض الكتب الإلهية ، وواظب على الصلوات ، لأنه بمقدار ما تخاطب الله بها يتقدس جسمك ونفسك وروحك .

فأعرف هذا أنك تتقدس بمقدار قراءتك واستماعك ، وأحرص أن تفاوضها بمداومة ، وإن كانت يداك مشغولتين فصلي بذهنك ، فإن حنه المغبوظة صلت ، فشفتها كانتا تتحركان فقط ، وأما صلاتها فدخلت في مسامع الرب الصباؤوت ، لأنه أعطاها سؤالها .

فلهذا إن كانت يداك مشغولتين ، فأتلُ بذهنك ، فإن الله يستمع من الساكتين .  
وإن كنت لا تعرف أن تقرأ ، فأذهب إلى حيث تسمع وتنتفع دائماً ، فإنه قد كتب : إذا رأيت إنساناً فقيهاً فادلج ( أسرع ) إليه ، ولتسحق قدمك درج ( سلّم ) أبواب منزله .

وهذا يا أخي يفهمه لا الذين يعرفون أن يقرءوا فقط بل والذين لا يعرفون معاني الأقوال التي يقرءونها .

أحذر أيها العابد أن تتوانى في الموهبة التي مُنحتها من المسيح ، لكن أحرص وأطلب كيف ترضيه ، وتنال تطويب القديسين ، فقد كتب : مغبوطون الذين يفحصون شواهد ويتبعونه بكل قلوبهم .

وأحذر أن يقطعك العدو إذا عزمت أن تقرأ ، إذ يجلب عليك الضجر ويلقيك في تغلبات يسحب بها ذهنك إلى كل جهة ويقول لك : أعمل هذا الأمر ما دام عمله يسيراً ثم أقرأ بلا اهتمام .

فبيئتي يخطر لك هذه ، ويمنحك نشاطاً في عمل اليد ليشغلك بها ، ويعوقك عن أن تقرأ وتنتفع ، لأنه إذا رأى أماً يداوم القراءة وينتفع بهذه الحجج وأكثر منها يجتهد أن يعيقه ، فلا تدعن له ، وصر كالآيل الذي يعطش ويشتاق أن يجيء إلى عيون المياه أي الكتب الإلهية لتشرب منها وتبرد عطشك الملتهب فيك بالآلام .

ولا تترك أن أصف لك المنفعة الصائرة من القراءة ، فكما قلت : إذا منحك الله أن تعرف منها كلمة لا تهملها تعبر عنك ، بل أتلوها درساً ، وأكتبها في قلبك ، وأحفظها في حاسة ذكرك غير محوطة .

فقد كتب : " أني أتلو حقوقك " . وأيضاً : " خبات في قلبي أقوالك لكي لا أخطئ إليك " . وأيضاً : " بماذا يقوم الشاب سبله؟ بحفظه أقوالك " .

أرأيت أيها الأخ أنه بتكرار أقوال الرب يقوم طريق الإنسان ، لأن من ذا يتذكر أقوال الرب فلا يتقوم ، اللهم إلا إن كان غير مختبر وشقي ، فمثل هذا لا يذكر بالجملة بل والذي يشعر أنه يذكره ينساه .

ولمثل هذا يقول الله : " لم تحدث بحقوقي وتأخذ بفمك ميثاقي " . ويأمر أن ينزع منه الشيء الذي يظنه له ، فماذا يظن في ماله ؟ يظن أن له أمانة لأنه يدعى مسيحياً ، وبأفعاله يجحد ذلك ، فهو أشر من الكافر .

فلذلك يأمر أن ينتزع ما له من الروح القدس ، الذي أخذه في يوم الافتداء ، فيصير ذلك الإنسان بمنزلة جرة نبيذ ، ترشح رشحاً كثيراً ، وبرشحها تضيع النبيذ .

فكافة الذين يبصرونها ولا يعرفون الأمر الصائر ، يظنون أنها مملوءة ، فإذا فتشت حينئذ يظهر للجماعة أنها موضوعة فارغة .

هكذا ذلك الإنسان إذا أختبر في يوم الدينونة المهول ، وصادف مصفراً حينئذ تصير أموره ظاهرة لكل ، ونظيره الذين في ذلك اليوم يقولون للملك : أيها الرب أليس باسمك تنبأنا وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فيجيب الملك ويقول لهم : حقاً أقول لكم لست أعرفكم .

أرأيت أيها الأخ أن مثل هذا ليس بالجملة شيئاً ، فتذكر أنت إذا الأقوال التي سمعتها وقوم طريقك ، أحذر أن تدع النسيان أن ينحدر فيخطفها من قلبك ، أحذر أن تترك الطير الخبيث ينزل فيأكل زرع ابن الله ، فإنه هو قال : أن البذار هو القول الذي سمعتموه .

أخف البذار في بطون الأرض لكي ما يثمر ، أي أخف قول التعليم في صميم قلبك ليثمر لله بالتقوى ، فإذا قرأت أقرأ باهتمام وتعبد ، وأعبر في الفصل بثبات كثير ، ولا تسر في تقليب الورق فقط ، فإن كانت الحاجة ماسة فلا تعجز أن تكرر الفصل مرتين وثلاثة ومراراً كثيرة لتفهم قوته .

وإذا عزمت أن تجلس لتقرأ ، فأطلب أولاً إلى الله قائلاً : يا ربي يسوع المسيح أفتح مسامع قلبي وناظري لأسمع أقوالك وأفهمها ، فأصنع مشيئتك ، فأنتي ساكن في الأرض ، فلا تكتم عني وصاياك . أكشف حجاب عيني ، فأأمل عجائبك من شريعتك ، لأنني عليك أتوكل يا إلهي أن تضئ قلبي . نعم يا أخي أطلب إليك أن تبتهل إلى الله كل حين هكذا ، لكي ما يضيء عقلك ، ويوضح لك قوة أقواله .

فإن كثيرين ضلوا إذ وثقوا بذهنهم ، وزعموا أنهم حكماء فحمقوا ، وإذ لم يتقنوا ويفهموا المكتوبات تكردسوا في التجديف وهلكوا .

وإن وجدت في كل قراءتك كلمة مستعجم فهمها ، فأحذر أن يعلمك الخبيث أن تقول في ذاتك ليس هكذا المعني كما يذكر هذا القول ، لأنه كيف يمكن أن يكون هكذا أو نظيره .

لكن إن كنت تؤمن بالله فصدق أقواله ، وقل للخبيث : أنصرف ورائي يا شيطان فإنني اعرف أن كلمات الله كلمات طاهرة فضة محمأة مصفاة سبعة أضعاف ، وليس فيها شئ صعب ولا معوج ، لكنها كلها ظاهرة للذين يفقهون ، ومستقيمة لذوي العلم .

وأنا إذ لا فهم لي لست اعرفها ، أنا اعرف أنها مكتوبة بمعنى روحاني لأن الرسول يقول : إن الناموس روحاني .

ثم بعد هذا ارفع طرفك إلى السماء وقل : يارب أنا أصدق أقوالك ولا أقومها بل أني أرضي بأقوال روحك القدوس ، أنت يارب خلصني لأجد نعمة أمامك ، أنا لست ألتمس شيئاً آخر إلا أن أخلص فقط وأنال رحمتك أيها المتحنن . لأن لك الملك والمجد والعز والاقنتار إلى الدهور . آمين .

أقتن السكوت أيها الأخ بما أنه سور حصين ، لأنه يجعلك أعلى من الآلام . فأنت تقصد في الاستعلاء ، والآلام تروم إحذارك إلى أسفل ، فأقتن السكوت بمخافة الله، فلا تصل إليك كافة نبل العدو ولا تضرك .

الصمت المقترن بمشيئة الله هو مركبة نارية من أقتناها يصعد إلى السماء ، ويقنعك بذلك إبليبا النبي كيف أحب السكوت وتقوى الله فصعد إلى السماء . يا للسكوت نجاح العباد ، يا للسكوت السلم السماوي ، السكوت طريق ملك السماء ، السكوت أم التخشع ، السكوت مسبب التوبة ، السكوت مرآة ترى الخطايا ، موضح للإنسان ذنوبه ، سبيل الدموع ، والد الوداعة ، مسكن للتواضع .

يجيب الإنسان إلى الترتيب السلامي ، مقترن بمخافة الله، منير الذهن، جاسوس الأفكار ، ومحتسب الإفراز ، والد كل خير ، توطيد الصوم ، ومعوق هيام البطن ، مسبب المثابرة على الصلاة والقراءة، سكون الأفكار، وميناء صاحي ، جاعل النفس بلا اهتمام .

نير صالح ووقر خفيف ينيح ويحمل من يحمله ، سرور النفس والقلب ، لجام العينين والسمع واللسان .

يا لك من سكون مبغض العريضة وعدو الوقاحة ، أم الوداعة سجن الآلام ، مؤازر كل فضيلة ، مسبب هجر الاقتناء ، حقل المسيح المثمر الأثمار الصالحة ، مقترن بخشية الله ، سور وحصن للمريدين أن يجاهدوا من أجل ملك السماوات .

نعم أقتن يا أخي هذا الحظ النفيس كما اقتنته مريم ولن ينتزع منها .  
أرأيت أيها الأخ ما قدر السكوت ، وكيف الرب يمدح من أقتناه ، أقتنيه فتنعم بربك جالساً عند رجليه ملتصقاً به وحده وقل بدالة : لصقت نفسي وراءك وإياي عضدت يمينك ، من أجل هذا تمتلئ نفسي كأنها ممتلئة من شحم ودسم .

أقتن هذا السكوت فإنه أحلى من العسل ، لأن خبزاً وملحاً في سكوت أفضل من تنضديد ألوان الأغذية الفاخرة بهم وحزن .

أسمع القائل : تعالوا إليّ يا معشر المتعوبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم .

فالرب يشاء أن يريحكم من الهموم والغضب والأتعاب ، وغموم هذا الدهر ، يشاء أن تكون بلا هم من عمل لبن مصر ، يريد أن يدخلك البرية أي السكوت ، ليضئ سبلك بعمود السحاب لكي يطعمك المن أي خبز السكوت وعدم الهم، ويورثك الأرض الصالحة أعني أورشليم التي في العلا .

نعم يا حبيبي حب السكوت وإياه أقتن لتتعم بطرق شواهد الله كمن يتنعم بكافة الغنى ، أقتنيه بمخافة الله فيكون إله السلامة معك .

لأن به يليق المجد والعز الآن وإلى أباد الدهور . آمين .

أطلب إليكم أيها الإخوة المحبوبون من الله ، أن تحرصوا كل يوم ، وتذكروا هذه التعاليم ، متذكري الأمانة الرجاء المحبة التواضع .

اختموا كل حين الصلوات وتلاوة الكتب الإلهية بالسكوت ، لأن هذه الفضائل إذا كانت حاضرة عندهم وذائدة فيكم فلا تكونوا في معرفة ربنا يسوع المسيح بطالين ولا غير مثمريين .

والعابد الذي لم يقنتني هذه بل يتوانى في خلاصه هو أعمى شحاذ قد أشتمله نسيان خطاياہ القديمة ،  
وصح عليه المثل أنه كالكلب الراجع إلى قيئه ، كالخنزير الذي يستحم ويتمرغ في حمأته .  
فإن الذين هربوا من أدناس العالم بمعرفة ربنا يسوع المسيح ويلتفون بها ويلتفتون ثانياً وينغلبون  
فقد صارت أواخرهم أشر من أوائلهم ، ولقد كان أفضل لهم ألا يعرفوا طريق الحق ، أوفق لهم من  
أنهم بعد ما عرفوا عادوا إلى ورائهم .  
فمنذ الآن يا أحبائ المسيح وجنده المصطفين ؛ لنتناول الأسلحة من التعاليم المقدم ذكرها ،  
ونحفظها في قلوبنا ، لنستطيع أن نجاهد الجهاد النفيس ، ونطأ كافة قوة العدو ، وننجى من السخط  
الموافي الذي يحل بأبناء المعصية ، ونجد رحمة ونعمة في ذلك اليوم المرهوب أمام القاضي العادل  
المجازي كل أحد نظير أعماله . الذي به وحده يليق المجد . إلى آباد الدهور . آمين .